رحلتي إلى المغرب
إزاحة في المكان وعبور في الذات

ليانا جابر

جالسة وراء شاشة الكمبيوتر، متصفحة مواقع المؤتمرات المتنوعة، باحثة عن مؤتمر صيفي تربوي، يناسب عملنا البحثي الذي نسعى لنشره. آنذاك لفت نظري المغرب- مؤتمر تربوي يحمل عنوان (Rethinking Educational change)؛ أي إعادة التفكير في التغيير التربوي. أنا المنشغلة بولع بقضايا التغيير وكيفية إحداث التغيير، على الرغم من قناعتي بصعوبة هذا الأمر، ولكني أستشعر دائماً حاجة إليه في واقعنا التربوي. ولأجل هذا كان الاختيار.

ما زلت أذكر ذلك الشعور الممتزج بالفضول والتوجس الذي تفاقم في أيامي الأخيرة قبل رحلتي إلى المغرب، إلى أين أنا ذاهبة؟ وما الذي ينتظرني هناك؟ كانت حافة العالم بالنسبة لي، بلد وإن كان عربياً فأنا لا أعرف عنه الكثير، حتى لهجته لا أفهمها! وعاداته وتقاليده مبهمة تماماً بالنسبة لي، وتلك الترتيبات والتنسيقات التي أرهقتني، وشعرت في لحظة ما أنها ستتداخل جميعها وستتعقد الأمور من حولي.

حبست أنفاسي، وربطت جأشي وانطلقت . . . انطلقت حاملة معي تجربة تطبيقية حول "تنمية مهارات الذكاء العاطفي من خلال المنهاج المدرسي"، كان بحثاً إجرائياً مع مجموعة من المعلمين والمعلمات، تم تطبيقه في مدرستين، وقد تم توثيق التجربة وتصويرها والتأمل فيها. شعرت أنها تتناسب مع توجه المؤتمر، فهذه التجربة التطبيقية المتواضعة تحاول أن تصنع شيئاً باتجاه التغيير في الممارسات التربوية. لحسن الحظ، لم أكن وحدي، فقد رافقتني كريمة، إحدى الزميلات اللواتي طبقن التجربة، حيث اتفقنا أن تشاركني في عرض التجربة، وبخاصة أنها لعبت دوراً حيوياً فيها.

وأخيراً، وصلنا . . . بعد رحلة شاقة وطويلة تخللتها المحطات العديدة، وصلنا الدار البيضاء، وهناك تنفسنا عبق الترحيب والحفاوة والاحتضان، كان في انتظارنا محمد فاضل وزوجته. أحياناً تلعب الأقدار لعبتها، فمنذ فترة تعرف الزميل مالك على محمد فاضل من خلال الإنترنت، وحدث تواصل فيما بينهما أثمر عن مداخلات ومساهمات فكرية نوعية في مجلة رؤى تربوية قدمها محمد فاضل، ونشأت علاقة مهنية بين مركز القطان ومحمد فاضل، توسعت فيما بعد إلى أشخاص مغربيين آخرين مثل د. عز الدين الخطابي. وبما أني كنت أنوي السفر إلى المغرب، كان من المناسب الالتقاء بمحمد فاضل، لقد كنت أنا وزميلتي كريمة محظوظتين بهذا اللقاء، الذي أذاب جليد الغربة من حولنا، وأشعرنا أننا في بيتنا الثاني، حيث تلقفتنا في المطار أيد أمينة، تردع كل شعور بالاغتراب . . . على الرغم من فن العمارة المختلف، وتلك اللهجة التي أعجب كيف يفهمها أصحابها، والتضاريس المختلفة، شعرت بالارتياح الشديد، تبددت مني مشاعر الخوف والترقب والتوتر، وعاد الدم إلى عروقي حيوياً نشيطاً، وحاولت ذاكرتي وكاميرتي ألا تفوت فرصة لذكرى جميلة. لم أتوقع هذه الحفاوة ولم أكن على علم بالمطلق بطيبة هذا الشعب وتعاطفه الشديد معنا ومؤازرته لنا، وتلك الأسئلة والشغف لمعرفة أحوال الشعب الفلسطيني، وعلى الرغم من أنني أتضايق كفلسطينية من أني موقع شفقة العالم، فإنني لم أشعر بهذا الشعور، بل شعرت بالجسم المغربي يتألم وكأن عضواً من أعضائه ينزف، وبخاصة أن الأحداث في غزة آنذاك كانت في أوجها من التخريب، والقتل، والمجازر اليومية، إثر أسر المقاومين جندياً إسرائيلياً.

قضينا يوماً في الدار البيضاء قبل بداية المؤتمر، ثم انتقلنا إلى فاس؛ تلك المدينة المشهورة بعراقتها التي تبعد أكثر من أربع ساعات في القطار عن الدار البيضاء، رافقنا إلى هناك محمد فاضل واستقبلتنا أسرته، فكان لنا شرف الدخول إلى بيت مغربي عريق، والتعرف إلى عاداته وتقاليده، وأكلاته اللذيذة، ينبض فيهم الدم العربي بقوة، تشعرهم أخواناً منذ

ليانا أثناء قيامها بعرض التجربة

الطفولة، مع أنك تراهم للمرة الأولى، كم هو جميل هذا الشعور، الجسم العربي الواحد، لطالما درسنا في كتب التاريخ عن الوحدة العربية، التي كنت دائماً أشعرها شعاراً نردده لفظاً لا حقيقة، كنا محظوظتين أيضاً بلقاء الدكتورة زهرة، والدكتور عز الدين الخطابي؛ الأستاذين في جامعة فاس، اللذين اصطحبانا في جولة في مدينة فاس العريقة، شعرت أنني في أزقة البلدة القديمة في القدس، تنفست عبق التاريخ، وشعرت بعراقة المكان وأصالته.

وفي مساء ذلك اليوم انتقلنا إلى بلدة تدعى إفران، تجلس على ربوة تكسوها الغابات الخضراء، والنسيم العليل، وتعتبر منطقة يقصدها السائحون والمصورون الذي يريدون أن يخلدوا جمال الطبيعة الخلاب بخضرته النضرة، هناك تقع جامعة الأخوين، وهي جامعة أمريكية، تقصدها النخبة من أبناء الطبقة المالكة والحاشية الملكية ورجال الأعمال، وقد سمعت من أكثر من شاب مغربي أن هذه الجامعة لا تمثل الجامعات المغربية الأخرى، بل هي شيء مختلف!

عذراً، لقد أطلت في التفاصيل ربما لأنني وجدت في هذا فرصة لاستعادة بعض ذكرياتي هناك . . . عودة للمؤتمر الذي يحمل عنوان التغيير التربوي، والذي استقطب مشاركين من مختلف أنحاء العالم ابتداءً من الشرق الأقصى وانتهاءً بالأمريكيتين وما بينهما، عقد المؤتمر -الذي نظمته هيئة عالمية للسلام للمرة الثالثة- في الفترة الواقعة من 2-5/ 7/ 2006، وتألف من شقين رئيسيين متزامنين، أولهما اشتمل على مجموعة من الأوراق وورش عمل وعروض لتجارب وخبرات، حملت عناوين تنسجم مع التوجه الرئيس للمؤتمر. أما الشق الثاني فقد تمثل في مجموعات بؤرية وجلسات عصف ذهني حول موضوع التغيير، وبالأدق تم استعمال مصطلح (transformational change).

وفيما يتعلق بالمحور الأول المتمثل في الأوراق وورش العمل، فقد تنوعت على مدار 3 أيام، تم تصنيفها تحت محاور فرعية مثل التربية والتمكين وممارسات التعليم الانتقالي، وخبرات التعلم الانتقالي، والمدارس الانتقالية (وهنا تم عرض تجربتنا)، والتغيير التربوي، ودور المؤسسات في التغيير التربوي، والتربية والسلام، والتعلم والنمو الشخصي. ضمن المحاور الفرعية السابقة كان هناك تجربتان أو ثلاثة، لقد كانت العروض كثيرة ومتزامنة، بحيث لم نتمكن من المشاركة سوى في جزء قليل منها. بعض العروض كانت غنية في مضمونها، وما تولد عنها من نقاش، والبعض الآخر كان يحمل عنواناً براقاً أكثر من مضمونه.

كان اليوم الثاني من أيام المؤتمر هو موعد تقديمنا لورقتنا، إذ قمت أنا والزميلة كريمة بتحضير بعض المقاطع المصورة داخل غرفة الصف، بالإضافة إلى وصف عن موضوع الذكاء العاطفي بشكل عام، ووصف عن التجربة والمراحل التي مرت بها، ومن ثم التأمل في التجربة، والتعبير عن المشاكل والتحديات. كنا قلقتين متوترتين، إلا أن تعليقات الحاضرين أعطتنا شعوراً بالارتياح، فالربط بين النظرية والتطبيق والدخول إلى عمق الصف الفلسطيني، أثار إعجاب المشاركين، الذين لم يتوقعوا أن هناك مستوى عالياً ونوعياً من العمل الجاد في فلسطين من أجل إحداث التغيير.

أما فيما يتعلق بالمحور الثاني، وهو صاحب النصيب الأكبر من حيث الوقت والتركيز، فقد تم تقسيمنا ومنذ اليوم الأول في المؤتمر إلى مجموعات أطق عليها اسم "المجموعات الصغيرة". كل مجموعة تحتوي على حوالي 10-12 مشاركاً، وقائد مسهل للمجموعة الذي كان يتولى إدارة النقاش وتوجيهه، وقد كان لكل لقاء على مدار الأيام الأربعة أجندة خاصة به، بحيث يكون العمل موجهاً وليس عشوائياً، ومتوجهاً نحو هدف ما.

تمحور النقاش في المجموعات الصغيرة، كما أسلفت، حول التغيير بشكل عام، ففي البداية طلب من المشاركين استعراض خبراتهم الشخصية التي أدت إلى إحداث تغيير عند كل منا، وإحداث نقطة تحول في حياته، وهنا كان لي وقفة مع نفسي، ووجدتني مجبرة على التأمل في حياتي، وهذا قلما يحدث لي في عجالة هذه الحياة ومتطلباتها، اعتبرتها فرصة جيدة سنحت لي بنفض غبار الإهمال في ذاتي، والتوقف لحظةً لتقييم الأمور، وتحديد الطريق الصحيح الذي يجب أن أختاره في هذا المفترق التأملي، فأنا عادة أتأمل في ممارساتي اليومية، في التعليم، موقف هنا وموقف هناك، ولكن لا تسنح الفرصة لي كثيراً في التأمل في أعماق ذاتي، ووجودي . . . ثم خضنا كفريق في جولات من العصف الذهني لسبر غور التحول والتغيير وفهم المعاني والمضامين، ما هو التحول، ولماذا يحدث؟ وكيف يحدث؟ حاولنا كمجموعات صغيرة أن تضع كل مجموعة منا معايير للتغيير، والتأمل في ذواتنا وخبراتنا الذاتية في الحياة والعمل.

كانت الأجندة واضحة قبل كل لقاء، إذ ورد في برنامج المؤتمر الذي وزع علينا منذ اليوم الأول في المؤتمر مجموعة من الأسئلة التي ستوجه النقاش في كل جلسة من جلساتنا التي امتدت حوالي 4 ساعات يومياً، كانت الأسئلة تحاول الانتقال من الخبرات العامة إلى التربوية، ومن الحياتية إلى المؤسساتية وبالتحديد التربوية منها، ولكني شعرت أننا وعلى الرغم من محاولة البعض منا التوغل في الجانب التربوي، فإننا لم نترك العام، وكانت الخبرات الحياتية المتنوعة جداً تبتعد أحياناً، بل وكثيراً عن السياق التربوي. كنت أحاول من خلال نقاشي في المجموعة أن أستدرجها إلى الجانب التربوي، ولكني لم أنجح، كان لدي فضول كبير في الدخول

كريمة في إحدى المجموعات الحوارية تعرض خططها للتغيير.

إلى عمق المساحات التربوية، ولكن لم أنجح، لم أكن أنتظر وصفات جاهزة للتغيير لأنني أمقت الوصفات الجاهزة عندما يطلبها أحدهم مني في ورشة أو مساق أو أي استشارة، ولكني كنت أشعر بأننا هنا في فلسطين بحاجة ماسة للتغيير على المستويات كافة، وبالأشكال كافة. شعرت أنني أكثر المشاركين إلحاحاً في هذا الجانب، وتساءلت: هل كل هذا بسبب شعوري أننا في ضائقة في حين أن الآخرين يشعرون بالرضا اتجاه أنفسهم ومؤسساتهم وأنظمتهم؟ أم هل هناك أسباب أخرى؟ هل كان استصراخي آتياً من أننا أمة في محنة بينما الآخرون متنعمون بالاستقرار داخل أنظمة مؤسساتية هانئة؟ أم أنا أبالغ أحياناً في تقنيني للأمور؟

وبينما أنا في صراعي الداخلي وتوتري أحاور ذاتي وأتأمل في سير الأمور، يتملكني خوفي في أن أعود بخفي حنين، ولا أدري كيف يكون التغيير والتحول، بدأت أرى تلك الحلقة الواصلة بين العام والتربوي، وبين الفرد والمؤسسة، وبين الخبرات الذاتية والمؤسساتية، فالأفراد هم المؤسسة، والتغيير يجب أن يبدأ بالذات أولاً، فالكل مؤلفة من ذوات متعددة، ولكن القضية هي قضية انسجام وتناغم والعمل في اتجاه واحد.

لقد تركت تجارب الآخرين وتأملاتهم ومداخلاتهم في نفسي انطباعاً، وتولدت لدي قناعات بضرورة تغذية الجانب الروحاني، وإعطاء النفس مساحتها الكافية ووقتها الكافي، فقط لتتأمل وتعي وترى وتدرك، وهنا سيحدث التغيير، سيحدث من الداخل، وليس من أي إملاء خارجي. فهناك من شعرت بالتغيير عند فقدان عزيز، وأخرى عند ميلاد ابنتها وتوقفها عن التنفس للحظات ظناً منها أنها فارقت الحياة، وثالثة عندما شعرت بالنظرة الدونية للأنثى في بلدها باكستان، وأخرى عندما نشأ من حولها صراع بين الأديان والطائفية في لبنان، وآخر وهو متعمق في تأمله للحياة والوجود.

في النهاية، طلب من كل مشارك فينا أن يضع خطته الإجرائية للتغيير، ويعرضها على المجموعة. تباينت المساهمات بتباين الأفراد، فمنهم من وضع خطته مركزاً على جزئية صغيرة، والأغلب تمحور نحو ذاته وطموحه المستقبلي، ولكن بقيت مشدودة إلى هناك، ما زال ذلك الشعور بالمسؤولية اتجاه النظام يصرخ داخلي، لا بد من إحداث تغيير، حاولت جاهدة في صياغتي لخطتي أن أوازن بين الخاص والعام، ولكني كنت أشعر أنني أرتطم بجدار الواقع، فعلى الرغم من طموحي، فأنا عاجزة عن إحداث التغيير وحدي، لا بد لنا جميعاً أن نتكاتف، فالتغيير يحدث بالأفراد لا بالفرد وحده، وعدت أتساءل كيف سنحقق ذلك الانسجام وتوحد الهدف بين هؤلاء الأفراد على اختلاف مصالحهم وميولاتهم؟

ومما أثار إعجابي على مدار الأيام الأربعة الانسياب السلس للقاءات في المجموعات الصغيرة، والأسلوب الذي قام به قائد المجموعة في إدارة الموضوع، إذ لم يأتِ بمعرفة من الخارج، وتجنب الأطر النظرية، بل كان عمله متمحوراً حول استخلاص المعرفة من سرد المشاركين وقصصهم وأرائهم وتأملاتهم، وقد تولدت بالنهاية معرفة زخمة، وهذا ما حصل بدوره في المجموعات الصغيرة الأخرى، وبالنهاية كانت المحصلة نوعية، والخبرات متنوعة، وسيعمل المؤتمر الآن على إصدارها في كتاب.

حاولت تلخيص ما جرى من نقاش في مجموعتنا التي هي واحدة من حوالي اثنتي عشرة مجموعة، ففي محاولة لمعرفة ما هو التحول/التغيير (transformation)، تعددت آراء المجموعة، ومنها أن التغيير يتضمن الموت ثم العودة للحياة من جديد، لذا فإننا نشعر بنوع من الألم، ألم التخلي عن شيء كنا نرتاح له، وألم التعود على شيء جديد. التغيير لا يحدث مرة واحدة فقط، وإنما يمر في لولبية من الموت والإحياء. التغيير لا يتم بصورة غير واعية، وإنما يتطلب شخصاً متأملاً دائم التساؤل. إنه التغيير في ذاكرتنا وهويتنا من الماضي إلى المستقبل، وتطوير هذه الهوية كجزء من مجتمع أكبر. التغيير قد يسبقه الشعور بأنك في الهوة. التغيير يمر بمراحل عدة قد تكون في أوسطها صعبة، فالبيضة قبل أن تتحول إلى بجعة جميلة تكون فرخة قبيحة، فالتغيير يتضمن حالة من الضياع والشواش والطاقة من أجل إحداث التغيير. إن التغيير الإيجابي يتضمن نوعاً من الشعور بعدم الاستقرار والاستعداد للمجازفة.

أما فيما يتعلق بالتغيير التربوي، فقد كانت للمجموعة نصائح وتطلعات في السياقات التربوية، منها أنه علينا أن نغير من معتقداتنا في سياقات عدة، كالاعتقاد بتعدد القدرات عند الطلاب، والقدرة على تغيير الطلبة. التغيير يحصل عند الطالب عندما يكون إيمانه وثقته بنفسه أكبر، وعندما يشعر أنه يمكن أن يقوم بما يريد. يجب على المعلم أن يعطي فرصة للطلاب لأن يشعروا بذواتهم، ويتحسس احتياجاتهم، ولا يعطي تعميمات في حكمه عليهم. كما يجب الموازنة بين تأثير المعلم واحتياجات الطالب. وأن يعطى الطالب فرصة أكبر للتفاعل مع المجتمع. إن المؤسسات المشجعة للتغيير يجب أن تمنح الطالب صوتاً أقوى.

كما تطرقت المجموعة لأثر المؤسسة على التغيير، وأشارت إلى أن النظام (system) غالباً ما يعيق التغيير. لذا، يجب البدء بالفرد في المؤسسة، إذ يجب أن يكون الفرد متصالحاً مع نفسه حتى يكون متصالحاً مع مجتمعه. يجب أن نكون حازمين في التمسك بقيمنا. كما يجب أن يكون مصدر قوتنا نابعاً من داخلنا قبل أن يكون من أي مصدر خارجي.

ومن أجل إحداث التغيير، اقترحت المجموعة إحداث نوع من عدم الاستقرار، والشواشية، وإثارة أسئلة بدلاً من إعطاء تصريحات، والتحقق من أن المعيقات حقيقية أم لا.

لقد كانت هذه التجربة بالنسبة لي غنية بأكثر من مفهوم، فمن ناحية كان تبادل الخبرات على تنوعها شيئاً مفيداً ومثيراً، ومن ناحية أخرى تجربة التواجد في المغرب والتفاعل المباشر مع شعبه بشتى أطيافه والتعرف على عاداته وتقاليده أمر لا ينسى، كما أن محور المؤتمر نفسه (التغيير) أحدث في نفسي تغييراً من نوع خاص، وأيقظ في داخلي روحانية هذه الحياة.

ليانا جابر – مركز القطان